الحلقة التاسعة عشرة

(1) (علي باشا يقرأ رسائل التعزية التي وصلته من أنحاء عديدة.. من السلطان عبد العزيز.. من السفارة الألمانية.. مـن طلبـة الكلية العسكرية.. من عسكريين قدامى تزوجوا ألمانيات.. من الجوائب.. من الشيخ يوسف الأسيرالذي أصبح رئيس تحريـر لسان الحال، ومدرسا للغة العربية في الجامعة الأمريكية فـي لبنان.. يناول شهريان رسالة لها من ألمانيا)

شهريان: (تقرأ الرسالة التي وصلتها من هيلدا) عزيزتي شهريان، في هذا الوقت الذي يصدر فيه كتابي "فن الطبخ التركي" الذي استقيت مادته من فم والدتك، يأتيني نبأ وفاتها فينقض علي كالصاعقة.. لأنني كنت أنوي أن أهديها نسخة عنه عرفانا بجميلها.. كم كانت كريمـة، حنونة، حكيمة، معطاء في حياتها.. وانني اذ أعزيك بفقدانها لعلمي كم كانت غالية عليك، أحتاج الى من يعزيني فيها..

أختك هيلدا

علي باشا: ان هيلدا تعمل في وزارة الخارجية فـي ألمانيـا، ولقـد ساعدتني كثيرا في انجاز صفقة الأسلحة مع وزير الـدفاع الألمـاني بأبخس التكاليف، فلقيت استحسانا كبيرا من مولانا السلطان، وكانـت بادرة لعودة الثقة بيني وبين عبد العزيز، فتوسطت فـي العفـو عـن مراد، ثم في العفو عن ابراهيم بعد أن تم القبض على مدحت باشـا.. ابق على اتصال بهيلدا فوالدها ذهب سفيرا الى لبنان، وأمهـا دائمـة السفر من بلد الى آخر، وهي لم تتزوج حتى الآن، وقد تأتي لزيارتك ان دعوتها في أعياد الميلاد، وقد تذهبين الى زيارتهـا فـي العطلـة الصيفية مع الأولاد..

شهريان: ليس الآن! فقلبي حزين، ولا أحد يمكن أن يعزيني عن فقـد أمي التي كنت السبب في وفاتها قبل أوانها!

علي باشا: كل شيء مكتوب في لوحة الأقدار.. فـاذا جـاء الأجـل يصيب الإنسان ولو كان في بروج مشيدة.. فلا تحملي ضميرك عذابا بأنك السبب في أمر كتب لها منذ مولدها.. فأنـت اتبعـت مـشاعر الزوجة الوفية لزوجها في شدته، ولعل مراد كان يتعفن فـي الـسجن

دون أن يدري أحد به، فكنت سببا مباشرا في تعاطف السلطان معـه وعفوه عنه وإكرامه.. (يدخل بهجت)

بهجت: ان زوجتي تريد أن تقيم حفلا عائليا في عيد الميلاد بمناسبة الإفراج عن مراد وأخي ابراهيم.. لقد قامت بنقل شجرة صنوبر الـى ردهة القصر وملأتها بالألعاب والزينات، وهي تدعوكم جميعا علـى الغذاء في الغد لنجدد أواصر الصداقة بيننا، ولنكون يدا واحـدة فـي الملمات..

شهربان: أنا لا أستطيع أن ألبي الدعوة وجرحي لا يزال طريا بفقـد أمي!

بهجت: ان أنجة تقيم هذا الحفل خصيصا لـك ولأولادك ياشـهربان، لتخرجوا من جو الحزن الذي يخيم عليكم منذ وفاة خالتي رحمهـا الله وأسكنها في جواره.. الصغار لا يحتملون الحزن والأسـى طـويلا، وعلينا أن نغلب فرحهم لنجاة أبيهم على حزنهم لوفاة جدتهم.. وأنت يا شهربان عليك أن تفعلي بدورك أي شيء يزلق عنك الأسى والحـزن رحمة بطفلك الذي ترضعينه.. عودي الى رياضتك، الـى طبيعتـك واخرجي مع مراد.. فالرياضة تتعب الجسم وتخفف عذاب النفس..

شهربان: عندي علي فلمن أتركه وأنا أقوم بالرياضة؟

بهجت: أتركيه عند والدتي وستقوم أمي برعايته كمـا كانـت أمـك ترعاه..

علي باشا: بهجت على حق يـا شـهربان.. لا يجـب أن تستـسلمي للحزن.. أولادك يحتاجون اليك اليوم أكثر من أي وقت مضى..

(2) (حفلة عيد الميلاد في بيت أم بهجت.. تدخل شـهربان تحمـل عليا.. تتلقفه أم بهجت وتناغيه وهي تجلس على ديـوان فـي الصالة.. تجلس شهربان قربها.. أولاد شهربان ينضمون الـى محمود ونعمت ولدي بهجت.. مراد وعلي باشا يدخلان غرفـة الضيوف)

أم بهجت: (تناغي عليا وهو يضحك) ما شاء الله كم زاد نموه! مـاذا تطعمينه؟

شهربان: لا شيء الاّ الإرضاع..

أم بهجت: آن الأوان لتضيفي الى الإرضاع عصير الفاكهة وأنـواع المهلبيات! أنظري كيف يتطلع الى شجرة العيد وهو مدهوش.. أنا لم يتح لي أن أرى حفيدي من بهجت وهما طفلان، ولهذا لا يكنان لـي

من العاطفة ما يكنه أولادك لأختي رحمها الله.. كانـت أنجـة منـذ زواجها من بهجت تنظر الي نظرة عدائية، وتحرض بهجـت علـى السفر والإستقلال، ولكن بعد أن جربت الحياة بعيدة عـن اسـتنبول، أصبحت ألين عريكة، وتتودد الي.. وأنا لا أتدخل في أي شـأن فـي القصر، فهي تسرح وتمرح فيه على خاطرها، لم يعد غيرهـا فيـه.. تغير في الأثاث وتعيد ترتيبه، وتفرض ذوقها الأوروبي على المنزل.. ألغت الغرفة الشرقية التي كنت أجد راحتي فيها واستبدلتها بالمقاعـد الأوروبية ستيل لويس السادس عشر، وبهجـت يطاوعهـا.. تقابـل السفراء ووجوه البلد والضيوف الأجانب.. وحتى في الأعياد يـصبح عيد رأس السنة أكثر أهمية من عيد الفطر والأضحى، ويصبح الديك الرومي أطيب مذاقا من الخروف المحشي بالرز والصنوبر واللـوز والفستق الحلبي.. أما الكبب بأنواعها فهي لا تذوقها وتقول أنها تفـسد قوامها.. والجاتويات تصبح أفضل مـن الحلويـات الـشرقية التـي نصنعها.. وجاءت بطباخ ألماني خصيصا لصنع طعـام لـضيوفها.. ولكنني أصررت وقد دعتكم في عيد رأس السنة أن نقدم بالإضافة الى ما هيأه الطباخ الألماني أن نقدم مآكلنا التي يحسن طباخنا صـنعها..
(تعود الى مناغاة علي وتدليله.. تدخل أنجة.. تسلم علـى شـهربان وتدعوها الى غرفة الإستقبال)

شهربان: انني مرتاحة هنا.. وأستطيع أن أشرف على الأولاد وهـم يلعبون..

أنجة: دعي الأولاد وحدهم يلعبون.. ان مكاننا هناك مـع رجالنـا! دعوت ثلاثا من صديقاتي القدامى مع أزواجهن وهم عسكريون مـن رفاق بهجت، ربما كنت تذكريهم!

(3) (شهربان ومراد فـي نزهـة علـى حـصانيهما.. يتـرجلان ويستريحان قرب نبع يسيل في نهير تسقى منه البساتين)

مراد: أنا لا أشعر بالراحة في صحبة بهجت وابـراهيم ورفاقهمـا.. كلهم عثمانيون جدد، وأنا لا أرغب أن أنضم الى شلة قد تورطني في تطرفها كما ورطتني الحركة التي كنت أنتمي اليها..

شهربان: ان ابراهيم رجل قانون معقد فـي ذهنيتـه، وأحـسب أن ملازمته لمدحت باشا قد تركت آثارها عنده.. وله طموح من يرغـب في الإرتفاع الى قمة الشجرة بوقت قصير، ويلمع كرجل مثقف نـادر المثال..

مراد: الأمر غير هام ان كان ما يعنيه مجرد ثرثرة كلامية بين أهل وأصدقاء.. أما أن يبذر شقشقة لسانه في حلقات أوسع فهي خطر عليه وعلى من يلوذ به وعلى الأمة بأسرها، ونحن نواجه حربـا شـعواء وفتنا في الولايات بسبب محاولات التتريك التي يقوم بها جماعتهم في كل مكان من أنحاء السلطنة.. فهل مثل هذه الدعوات تنقذنا من الديون والمرابين والفساد والرشوة السائدة في دواويننا؟ أو تحمل لنا النـصر في حربنا الثانية مع روسيا؟

شهربان: أما بهجت فهو لا يتحمس لأي مذهب ولا يؤمن بأي شيء الاّ أن تدوم له أسباب الرفاهية والنعيم الذي يتبحبح فيه.. وفي اعتقادي أن كليهما لا يملكان شجاعة التضحية، ولن يغبرا قدميهما في معركة، بل سيختبئان في الصفوف الخلفية: في دواوين المالية، وفي سـفاراتنا في الولايات، أو في إحدى الدول الغربية..

مراد: ورفاقهم بضحكاتهم المزعجة اللامبالية لايصلحون الاّ لـدور المهرجين في قصر السلطان!

شهربان: هذا ما يحدث للضباط الذين يتزوجـون أجنبيـات.. انهـم يصبحون طوع بنان زوجاتهم.. يشعرون بالدونية تجاههن بسبب تفوق حضارتهن، ولا يتشبثون بكبرياء أمتهم.. يتحدثون بالتتريك للولايـات وأبناؤهم لا يعرفون اللغة التركية ولا يتكلمون بها!

مراد: أحقا لا يعرفون اللغة التركية؟

شهربان: الأولاد يتلقون لغة الأم، فاذا كانت المرأة أجنبية وتحـب أن تداري زوجها وتعلمت اللغة، تلقنها للأبناء على عوج.. فالمدرسة هي التي تعلمهم، ولكن يبقون دائما مقصرين في لغة أبـيهم.. ان عثمـان ومصطفى لم يحبا معاشرة محمود ابن بهجت وأخته نعمـت لأنهمـا تربيا في مدارس السفارات الأجنبية.. ولما جاء أبناء رفـاق بهجـت أخذوا جميعهم يتحدثون بالألمانية فشعرا بالعزلة والوحدة.. وانـسجم سليمان مع ابنة أحدهم وهي في مثل سنه وأخذا يتحدثان بالإشـارة.. (مراد ينظر في ساعته) هيا بنا لنعرج على منزل خالتك ونأخذ عليـا قبل أن يتلقن الألمانية قبل التركية (شهربان تضحك)

شهربان: لن تتركه خالتي يفعل.. انها ابنة مجد الأيام الغابرة وهـي تعاني جفاف السماء اللامبالية، والقلب الظامئ للحب.. انها ملكة زال عن رأسها تاجها، والقصر الذي تعيش فيه ليس لها..

مراد : (وهو يرتقي ظهرالحصان ويمسك بالمقود) أتعلمين أن أمـي كلما زرتها ومعي الأولاد تنعى علي أنني لا أفيها حقها فـي رعايـة أولادي وأنا وحيدها؟
شهريان: ان أولادي يحبونها.. ووضعها أفضل من وضع خالتي التي ربت ثلاثة أبناء لم يعودوا لها.. حتى حفيـديها لا يـشعران بعاطفـة نحوها، ولا تمون على شيء في قصرها.. فبهجت ضعيف الشخصية أمام زوجته لا يطلب الاّ رضاءها.. وجواد يرحمه الله فجعهـا فـي شبابه، وابراهيم كما ترى متمحورحول ذاته..

* * *